

عدد خاص بالملتقى الدولي

(العلوم الإسلامية من الرصيد التاريخي إلى التفعيل الحضاري)

أثر العلوم الإسلامية في بناء المعرفة الجمالية

The impact of Islamic sciences on building aesthetic knowledge

محمد الطاهري*

جامعة محمد الأول، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - وجدة، (المغرب)

medtahirinet@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/05/06 تاريخ القبول: 2022/07/02 تاريخ النشر: 2022/11/30

ملخص:

يعتبر سؤال المعرفة الجمالية مفتاحاً لإدراك حجم إسهامات المسلمين وأثر علومهم في الجمال، وفهم تصورهم له، ويظهر أن كثيراً من الباحثين اليوم في التراث الجمالي على معرفة تكاد تكون تامة بالفكر الجمالي اليوناني الكلاسيكي، لكنهم مختلفون بخصوص ما أنتجه المسلمون من نصوص جمالية، فقسم منهم يرى أن هذه الإنتاجات ليست لها صفة شمولية النظر في الموضوع الجمالي الإسلامي، لأنها نماذج يطبعها التجزيء، وغير متسقة، ولا تستطيع تشكيل نظرية جمالية إسلامية، وقسم آخر يرى أن هذه الإنتاجات تبرز سعة وعمق المعرفة الجمالية عند العلماء المسلمين فضلاً عن مساهمتهم من خلالها في بناء الحضارة.

وأمام هذا الاختلاف في وجهات النظر، الذي يعبر عن إشكالية هذه الورقة، حاول الباحث دراسة الموضوع من مختلف جوانبه بمنهج استقرائي وصفي وتحليلي توصل من خلاله إلى نتائج أبرزها كبر وعمق إسهام العلوم الإسلامية في بناء المعرفة الجمالية ودورها المهم في بناء الحضارة الإنسانية، في جميع جوانبها ومستوياتها.

الكلمات المفتاحية: أثر العلوم الإسلامية، المعرفة الجمالية.

* المؤلف المرسل: طالب باحث في سلك الدكتوراه كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول، وجدة، المغرب

Abstract:

The question of aesthetic knowledge is a key to understanding the size of the contributions of Muslims and the impact of their sciences on beauty, and their perception of it. It appears that many researchers today in the aesthetic heritage have almost complete knowledge of the classical Greek aesthetic thought, but they differ regarding the aesthetic texts produced by Muslims.

These productions do not have a comprehensive view of the Islamic aesthetic issue, because they are models that are characterized by fragmentation, are inconsistent, and cannot form an Islamic aesthetic theory, and another section believes that these productions highlight the breadth and depth of aesthetic knowledge of Muslim scholars as well as their contribution through them to building civilization.

In the face of this difference in viewpoints, which expresses the problematic of this paper, the researcher tried to study the subject from its various aspects with an inductive, descriptive and analytical approach, through which he reached results, most notably the greatness and depth of the contribution of Islamic sciences to building aesthetic knowledge and its important role in building human civilization, in all its aspects and their levels.

Keywords: Effect-Islamic sciences- Aesthetic knowledge

مقدمة:

يعتبر سؤال المعرفة الجمالية مفتاحاً لإدراك حجم إسهامات المسلمين وأثر علومهم في الجمال، وفهم تصورهم له، ويظهر أن كثيراً من الباحثين اليوم في التراث الجمالي على معرفة تكاد تكون تامة بالفكر الجمالي اليوناني الكلاسيكي، لكنهم حين الحديث عن ما أنتجه المسلمون من نصوص جمالية، تراهم على قسمين، قسم يرى أن هذه الإنتاجات ليست لها صفة شمولية النظر في الموضوع الجمالي الإسلامي، لأنها -حسبهم- نماذج يطبعها التجزيء، وغير متسقة، وليست لها القدرة على تشكيل نظرية جمالية إسلامية، وقسم يرى أن هذه الإنتاجات تناولت الجمال كمادة ثرية متميزة قائمة بذاتها، تُظهر سعة وعمق المعرفة الجمالية عند العلماء المسلمين فضلاً عن مساهمتهم من خلالها في بناء الحضارة.

وأمام هذا الاختلاف في وجهات النظر، الذي يعبر عن إشكالية هذه الورقة، حاول البحث دراسة الموضوع من مختلف جوانبه لتحقيق الأهداف الآتية:

- إبراز تاريخ المعرفة الجمالية الإسلامية عبر القرون الأولى، من خلال الوقوف على أهم الآراء الجمالية، وما كان لها من تأثير.
- عرض لإسهامات العلماء المسلمين قديماً وحديثاً في بناء المعرفة الجمالية.
- رصد وتصنيف ونمذجة الانتاجات العلمية لعلماء المسلمين في مجال المعرفة الجمالية.

واعتمد لأجل ذلك منهجاً استقرائياً وصفيّاً وتحليلياً مكنه من تحقيق نتائج أبرزها كبر وعمق إسهام العلوم الإسلامية في بناء المعرفة الجمالية ودورها المهم في بناء الحضارة الإنسانية، في جميع جوانبها ومستوياتها.

المبحث الأول: بيئة المعرفة الجمالية في الفكر الإسلامي: قضايا ونماذج:

المطلب الأول: سؤال المعرفة الجمالية في الفكر الإسلامي:

ظل سؤال المعرفة الجمالية في الفكر الإسلامي القديم سؤالاً مؤرقاً لعدد من الباحثين الذين اختلفوا في النظر إليها من جهة وصفها معرفة شاملة في النظر، ومتسقة في العلم، والذين انقسموا إلى فريقين:

الأول: يضم فئة ترى أنه "لا يوجد في كثير من الدراسات التي أرخت للفلسفة ولو إشارة لفلسفة الجمال عند العرب، مع ما علمناه من اتساع وعمق تفكير عند العرب في عصور ازدهارهم الحضاري"⁽¹⁾، وربما يرجع سبب هذا الغياب لأي إشارة لفلسفة الجمال عند العرب - حسب هذه الفئة- إلى أن "الحضارة العربية الإسلامية لم تشعر بحاجة إلى إفراز خطاب نظري منهجي حول الجمال يمكن أن نفيد منه في بحث الأسس الجمالية للفن الإسلامية"⁽²⁾، وبالتالي "لا علاقة للفلاسفة والمفكرين المسلمين القدماء بالمعرفة الجمالية سوى أنهم قد مروا عليها باللمح والإشارات المتفرقين هنا وهناك، دون صياغة نسقية مستوفية لشرائط النظرية"⁽³⁾، وهذا ما جعل أحد رواد الأدب الإسلامي يعتبر أن: "من المدهش والمحزن أننا نحن المسلمين لم نضع نظريتنا الإسلامية في الجمال، حتى الآن.. مع أن أجدادنا رحمهم الله كتبوا بأسلوب عصرهم شذرات هنا وهناك، وبحثوا في الفقه والمنطق والنقد والفلسفة عن القيم الجمالية التي لا تتعارض مع أصولنا العقدية.. وآراؤهم مبثوثة في مؤلفاتهم المحققة والمخطوطة، تنتظر من يجمعها في دفتي كتاب"⁽⁴⁾، ويظهر من خلال آراء هذه الفئة أن فلاسفة ومفكري الإسلام الأوائل لم يصوغوا نظرية الجمال الإسلامية صياغة واضحة مجردة تؤطر النظر الفلسفي الجمالي كفكر متسق.

(1) الفرائي، كتاب التنبيه على السعادة، تحقيق: جعفر آل ياسين، ط: 2، القاهرة، مصر، دار المناهل للنشر والتوزيع، 1987م، ص: 77

(2) علي اللواتي، نحو نظرية للجمالية الإسلامية، ضمن: الفن العربي الإسلامي، ط: 1، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1982م، ص: 151.

(3) محمد المعزوز، الجمال.. مدخل إلى الإلهيات والطبيعات، ط: 1، البيضاء، المغرب، المركز الثقافي للكتاب للنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، 2020م، ص: 11 (بتصرف)

(4) عبد الباسط بدر، نحو نظرية جمالية إسلامية، مجلة الأدب الإسلامي، تصدر عن رابطة الأدب الإسلامي العالمية، ع. 58، 1429هـ/2008م، ص: 112

والثاني: يعتقد أن "صورة الفكر العربي-الإسلامي لا تكتمل دون منظومته الجمالية"⁽¹⁾، ويرى أنه في الفكر الإسلامي القديم توجد "بنية جمالية متكاملة مفتوحة على الإضافة والزيادة، من دون أن تقع في الخلل والاضطراب"⁽²⁾، ويرى أن المعرفة الجمالية الإسلامية القديمة تشتمل في مضانها نظرا جماليا متسقا ومتينا، من خلال شبكة اصطلاحية ومفاهيمية متفرقة على قطاعات معرفية متنوعة، بإمكانها أن تجعل من النظر في الموضوع الجمالي العربي القديم علما قائما على مفاهيم واستشكالات أطروحية، إلا أن ما ينقصه هو غياب وضع صناعي يوطر أسسها الموضوعية لتبيين الشرعية العلمية للموضوع، ولعل محمد المعزوز من رواد هذا الفريق، حيث فند من خلال كتابه "الجمال مدخل إلى الإلهيات والطبيعيات" مزاعم من قالوا من الفريق الأول إن العرب القدماء لم يتمكنوا من تحصيل علم معلوم يخص الموضوع الجمالي، وذلك عبر تفحصه لمفهوم العلم ابتداء، من مقتضى التداول اللغوي والعقدي والمعرفي، وهو تفحص أظهر خطأ زعمهم الناتج عن "غفلهم عن فهم معنى العلم في سياق تداوله التراثي، وتبرمهم من الاعتقاد بوجود نسق نظري جمالي عربي مندمج ضمن نسقية فكرية كبرى متقاطعة المجالات والمواضيع، محتدين في ذلك كل قادح في شمولية الفكر العربي الإسلامي حذو النعل بالنعل"⁽³⁾، ومع أنهم يرون أن علم الجمال هو ذاك الذي يستند إلى الأسس التي يتقوم بها المفهوم الحديث للعلم، وعلى النظريات المنقولة التي عملت على بناء موضوع الاستيطيقا، إلا أن المعزوز قد فند قولهم هذا أيضا⁽⁴⁾ وذلك بنهوضه بمهمة "الكشف عن حقيقة وجود علم جمالي عربي إسلامي قائم بموضوعه ومفاهيمه، انطلاقا من علمي الإلهيات والطبيعيات"⁽⁵⁾ وذلك بإثبات أن "الفلاسفة والدارسين الغربيين أنفسهم، قد عجزوا عن جعل الموضوع الجمالي موضوعا علميا منظويا على أهم مواصفات العلوم الحقة، بتأكيد من كانط نفسه"⁽⁶⁾، وكذا بانتهاضه

(1) سعد الدين كليب، البنية الجمالية في الفكر العربي الإسلامي، دراسات فكرية 35، وزارة الثقافة سوريا-دمشق، 1997 م، ص: 5

(2) نفسه، ص: 7

(3) محمد المعزوز، الجمال.. مدخل إلى الإلهيات والطبيعيات، ص: 31

(4) تفنيد المعزوز لرأي الآخر لا يعني انتاجه غائية ضدية تقوم كما يقول على "تثمين الفكر القديم بهدف ضدي يبغس الفكر الآخر"، وإنما نيته في ذلك "انتاج غائية إنصافية تعتمد قراءة النص القديم بحسن الإنصات إليه من أجل رين الغفلة عن حقيقة وجود علم جمالي في

الفكر العربي الإسلامي القديم"، انظر: الجمال.. مدخل إلى الإلهيات والطبيعيات، محمد المعزوز، ص: 44

(5) محمد المعزوز، الجمال.. مدخل إلى الإلهيات والطبيعيات، ص: 44

(6) نفسه، ص: 189

بقراءة النصوص القديمة الخاصة بالجمال عند الفارابي وابن سينا بشكل خاص، وغيرهم بشكل عام، وتصنيفها وترتيبها وفق نوعين من المحددات، أطلق على الأول اسم: "المحددات التحتية" يقصد بها القواعد والأسس التحتية التي انبنى عليها الموضوع الجمالي انبناء مفهوميا ونظريا في آن، وأطلق على الثاني اسم "المحددات الفوقية"، والتي منها المقويات الداعمة للمحددات الأولى "حتى تتأتى النظرية الجمالية ممتلئة بأعتى المفاهيم والقضايا المستوحية من علم الجمال" ⁽¹⁾.

واعتقد أن خطورة أطروحة الفريق الأول التي عرضت لها سابقا تتمثل في فتحها الباب على مصراعيه لكل ما يمكن أن ينشأ من الإشكاليات المعرفية المرتبطة بالمعرفة الجمالية الإسلامية، سواء كانت متعلقة بأصولها، أو بهويتها الثقافية، أو بطبيعتها الحضارية، أو بفلسفتها الفكرية، أو بنظريتها الجمالية التي حاول العديد من الباحثين وضع بنيتها المعرفية في ضوء الفكر الجمالي الغربي! وعليه فالحاجة ماسة إلى دراسة التراث الفكري الجمالي الإسلامي لما تكتسبه من أهمية كبرى باعتبارها -قبل أي شيء آخر- ستكون ميدان تأصيل للأطروحات الجمالية العربية المعاصرة، سواء كانت فنية أو أدبية أو غير ذلك.

المطلب الثاني: بنية المعرفة الجمالية في الفكر الإسلامي:

الفرع الأول: بنية المعرفة الجمالية في الفكر الإسلامي القديم:

إذا كانت بذور المعرفة الجمالية في الفكر العربي الإسلامي تمتد إلى ما قبل الإسلام -علما أن من الباحثين من ينفي وجود معرفة جمالية مصاغة بشكل واع، ناتج عن تأمل وتركيب، يجعلها كيانا متسقا، يعطيها صفة النظرية، وقد ذكرت ذلك فيما سلف- فإن بالإمكان القول: إن العرب والمسلمون قد عرفوا الجمال معرفة واعية، وتذوقوه تذوقا حسيا وذهنيا وروحيا ⁽²⁾، وهذا ما تجلّى في كتابات العلماء المسلمين الأقدمين الذين سأعرض لتصورات بعضهم الجمالية من خلال نماذج بارزة ومتنوعة من حيث الاهتمامات، وأقترح لذلك الجاحظ باعتباره أديبا لغويا، وأبا حيان التوحيدي باعتباره فيلسوفا، والغزالي باعتباره فقيها ومتصوفا.

⁽¹⁾ نفسه، ص: 192

⁽²⁾ أحمد أنيس الحسون، في تاريخ الفكر الجمالي، مجلة المعرفة، العدد: 556، يناير 2010م، ص: 307

1- البنية المعرفية الجمالية عند الجاحظ (ت. 255هـ):

حاول الجاحظ تحديد مفهوم الجمال فوجد صعوبة في ذلك وقال: "إن أمر الحسن أدق وأرق من أن يدركه من أبصره"⁽¹⁾، ويقوم المفهوم النظري للجمال عند الجاحظ على شرطي التمام والاعتدال، وذلك ما تبينه نصوص عديدة له، منها قوله: "وأنا مُبَيَّن لك الحُسْن، هو التمام والاعتدال، ولست أعني بالتمام تجاوز مقدار الاعتدال، كالزيادة في طول القامة، وكدقة الجسم، أو عظم الجارحة من الجوارح، أو سعة العين أو الفم مما يتجاوز مثله من الناس المعتدلين في الخلق، فإن هذه الزيادة متى كانت؛ فهي نقصان من الحسن! وإن عدت زيادة في الجسم! والحدود حاصرةٌ لأُمُور العالم، ومحیطة بمقاديرها الموقوتة لها، فكل شيء خرج عن الحد في خُلق حتّى في الدين والحكمة الذين هما أفضل الأمور فهو قبيحٌ مذموم. وأما الاعتدال فهو وزن الشيء لا الكمية، والكون كون الأرض لا استواؤها، ووزن النفوس في أشباه أقسامها، فوزن خلقه الإنسان اعتدال محاسنه، وألّا يفوت شيء منها شيئاً، كالعين الواسعة لصاحب الأنف الصغير الأفتس، والأنف العظيم لصاحب العين الضيقة، والذقن الناقص والرأس الضخم والوجه الفخم لصاحب البدن المدع النضو، والظهر الطويل لصاحب الفخذين القصيرتين، والظهر القصير لصاحب الفخذين الطويلتين، وكسعة الجبين بأكثر من مقدار أسفل الوجه، ثم هذا أيضاً وزن الآنية، وأصناف الفُرش، والوشّي، واللباس، ووزن القنوات التي تجري فيها المياه، وإنما نعني بالوزن الاستواء في الخרט والتركيب، فلا بد مما لا يمنع الناظر من النظر إلى الزرع والغرس، والتفسّح في خضرته، والاستنشاق من روائحه"⁽²⁾.

يظهر من حديث الجاحظ عن التمام أنه يقصد به الكمال، ويريد به الوسط في كل شيء، وذلك ما يعنيه بقوله: "فكل شيء خرج عن الحدّ في خُلق حتّى في الدين والحكمة الذين هما أفضل الأمور، فهو قبيحٌ مذموم"، أما قصده بالاعتدال فيظهر أنه (التناسُب المثالي أو النسبة الفضلى)، وذلك يظهر في حديثه عن فكرة الاتزان والتوازن المتناسق في قوله: "فوزن خلقه الإنسان اعتدال محاسنه، وألّا يفوت شيء منها شيئاً"، و"نعني بالوزن الاستواء في الخרט والتركيب".

(1) أبو عثمان، الشَّيْبَر ب "الجاحظ" (ت. 255هـ) رسائل الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، د. ط، القاهرة، مصر، مكتبة الخانجي، 1384هـ/1964م، 2/ 162

(2) نفسه، ص: 125

والباحث بشكل عام عن البنية المعرفية الجمالية عند الجاحظ يجدها حاضرة بشكل كبير في حديثه عن الجسد، وعن القول، وعن الخلق، وربما كانت لغة الجسد عنده - مثلاً - بكل تفاصيلها، من إيماءاتٍ، وحركات، وأصوات، وإشارات، وغيرها مصدراً للكشف عن رؤاه للجمالية التي قد تكون أحياناً مستغربة، فهو يقول مثلاً في موضع من كتابه البيان والتبيين: "قيل لأعرابي: ما الجمال؟ فقال: غُور العينين، وإشراف الحاجبين، ورحب الشدقين"⁽¹⁾، وربما تساءلنا بغرابة هنا: كيف يمكن أن يكون غُور العينين باعثاً على الجمال؟! وكيف للجاحظ أن يزيد من إدخال العين حين جعل الحاجبين مشرفين؟! وربما كان الأكثر غرابة وإثارة أن الإجابة عن هذين السؤالين قد توجي لنا على عقدة نفسية قد يكون الجاحظ عاشها بسبب جحوظ عينيه، فصار راسخاً في ذهنه أن الجمال هو عكس ما يلقَّب به، أي ربما قد يكون أصيب بالتذمر من لقب (الجاحظ) الذي كان يلقَّب به!

وفي موضع آخر يقول: "وكان علباء أعورَ دميماً، فلمَّا رأى براعته وسمعَ بيانه، أقبلَ عمرُ يصعدُ فيه بصره ويحدُّره، فلمَّا خرجَ قالَ عمر: لكلِّ أناسٍ في جُمْلِهِمْ خِبرٌ"⁽²⁾ فهنا أيضاً نرى إمكان الكشف عن رؤيته الجمالية من خلال حديثه عن الجسد.

إنه بغض النظر عن جماليات بلاغة الإفصاح، أو بلاغة النادرة، أو بلاغة الإضحاك، أو أدب السخرية التي كان يتميز بها الجاحظ؛ يمكن القول: إن نظرتَه للجمال "يجمع فيها بين توظيف الاستدلال العقلي والنص النقلي، وتحقيق المواءمة بينهما بما ينبي أن القيم الجمالية تحتل الريادة بين القيم الأخرى، لما لها من تعدد في المظاهر، واتساع في الأفق، ومقدرة على معايرة القيم الأخرى. فالفعل الجمالي لا يرقى بمضمونه فحسب، ولا بشكله فقط، بل بشكله ومضمونه في آن واحد، لأن الشكل والمضمون يتحولان إلى غاية جمالية تطلب في كل عمل جمالي، مادياً كان أم قولياً، ورسالة القيان التي ألفها الجاحظ بوحي من أبعاد الجمال الجسمية والقولية والخلقية خير ما يعبر عن مفهومه للجمال"⁽³⁾، وإن كان بعض الباحثين أمثال مختار قطش يرون أن "الجمالية عند الجاحظ مهما كان مستواها لا

(1) عمرو بن بحر بن محبوب الكتاني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (ت. 255هـ)، البيان والتبيين، بيروت، لبنان، دار ومكتبة

الهلل، 1423هـ، 1/ 118

(2) نفسه، ص: 201

(3) مختار قطش، مفهوم الجمال عند الجاحظ، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، ع. 18، ديسمبر 2002م،

ص: 206

ترقى في شكلها فوق منهج المعتزلة، وفي روحها فوق القيم في بعدها الديني⁽¹⁾ ومعلوم أن الجاحظ يعدّه كثيرون معتزلياً، وتتبع أقواله قد يفيد ذلك، وقد كتب بوضوح في إحداها من كتابه الحيوان تحت عنوان "فضل المتكلمين والمعتزلة" قائلاً: "لولا مكان المتكلمين لهلك العوام من جميع الأمم، ولولا مكان المعتزلة لهلك العوام من جميع النحل، فإن لم أقل ولولا أصحاب إبراهيم لهلك العوام من المعتزلة، فإني أقول إنه قد أنهج لهم سبلاً، وفتق لهم أموراً، واختصر أبواباً ظهرت فيها المنفعة"⁽²⁾، والمقصود من الإشارة إلى هذه القضية أهمية وضرورة استحضارها في بحث رؤيته الجمالية.

عموماً يمكن القول: "إن الجمال عند الجاحظ متسع الأفق متعدد المجالات، من جسي، وقولي، وخليقي، وإن المواءمة بين هذه العناصر ضرب من الفعل الحضاري الذي يرقى بخصائص الإنسان، ومن ثم كان الجمال عند الرجل مسألة موضوعية يتعارفها الناس وفق ضوابط لا يحيد عنها من الحس الطبيعي السليم، والمقصد الشرعي المطلوب، والتفكير العقلي السليم المفضي إلى تعديل الشق الشهواني في الإنسان إلى ما يلائمها"⁽³⁾.

2- البنية المعرفية الجمالية عند التوحيدي (ت 414هـ)

إذا كان الجمال الموضوعي والمعنوي الأخلاقي من مرتكزات الرؤية الجمالية عند الجاحظ، فإن أبا حيان التوحيدي - وإن كان يرى أن الجمال "كمال في الأعضاء وتناسب بين الأجزاء مقبول عند النفس"⁽⁴⁾، وهو يشترك في تعريفه مع الجاحظ في مسألة الكمال والتناسب الذين هما التمام الاعتدال عند الجاحظ - إلا أنه يقيم بشكل أساس سقف رؤيته الجمالية على ركيزة الجمال المعنوي، ويضع العقل لبنة لفهمه، ومن ذلك مثلاً ما نجده في بسطه القول عن صفات الله قائلاً: "وهي من الحسن في غاية لا يجوز أن يكون فيها وفي درجتها شيء من المستحسنات، لأنها هي سبب كل حسن، وهي التي تفيض بالحسن على غيرها"⁽⁵⁾، فالله عز وجل هو الجميل، وجماله معنوي مطلق، يجده العاقل في أبسط مخلوقاته سبحانه، وفي أعقدها، وفيما بينهما، وأبو حيان حين يتحدث عن الجمال المعنوي

(1) نفسه، ص: 203

(2) الجاحظ (ت. 255هـ)، الحيوان، ط: 2، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، 1424 هـ، 4/360

(3) مختار قطش، مفهوم الجمال عند الجاحظ، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، ع. 18، ديسمبر 2002، ص: 203

(4) مسكويه، الهوامل والشوامل، تحقيق سيد كسوري، ط: 2، بيروت لبنان، دار الكتب العلمية، 2012م، ص: 25

(5) نفسه، ص: 43.

يربطه بالخير، ويجعل العقل وحده معيارا في تذوقه واستيعابه، فهو يقول: "إن العقل لا يستحسن ولا يستقبح شيئا من الأشياء إلا بقرائن وشرائط، وهكذا الحال في الأشياء التي تعرف بالخير والشر، إن القصاص إذا وقع عليه هذا الاسم لما فيه من حياة الناس، وإذا وقع عليه اسم القتل بغير هذا الاعتبار صار قبيحا لما فيه من تلف الحيوان"⁽¹⁾، أي إن فعل الإنسان أو غيره لا يُعرف جماله أو قبحه إلا إذا دلت على ذلك قرائن وشرائط، مثل أن يتضح أثره أو فائدته، سواء على الفرد أو المجتمع أو غيرهما، وبما أن الجمال هنا معنوي، فقد تناسب ربطه بالخير، على حين ربط الجاحظ الجميل الحسي بالمنفعة، أما العقل عند التوحيدي فيبقى معيارا ثابتا مستمرا في إصداره للحكم، ولا يتغير أبدا بتغير الأحوال، فما يستحسنه "فهو أبدي الاستحسان له، وما يستقبحه، فهو أبدي الاستقباح له، ولا يتغير ذلك بتغير الأحوال"⁽²⁾، وبالتالي فإذا كان الناس منذ عهد "أرسطو" قد اعتادوا أن يميزوا الإنسان بعقله، فقالوا إنه حيوان ناطق، فإن التوحيدي يشير إلى سمة أخرى تميزه عن الحيوان وهي الجمال، ومعلوم أن الجمال ظاهرة إنسانية لا يستطيع الحيوان أن يشارك الإنسان في خلقها وإبداعها، والسبب في ذلك أن الجمال من فعل النفس، والحيوان لا يملك النفس وإن كان يملك الروح، يقول التوحيدي: "لم يكن الإنسان إنسانا بالروح بل بالنفس، ولو كان إنسانا بالروح لم يكن بينه وبين الحمار فرق، بأن كان له روح ولكن لا نفس له"⁽³⁾، غير أنه يرى أن تذوق الجمال ليس مقصورا على الإنسان، وإنما يشاركه الحيوان في ذلك⁽⁴⁾.

- عندما تدرك صفاته إدراكا حسيا ملموسا.

- عندما يستمد جماله من واقع مفاهيم اجتماعية معينة.

- عندما يحث عليه الشرع والدين.

- عندما تحلل صفاته وخصائصه وتدرك عقليا.

- عندما يحقق رغبة أو يثير شهوة.⁽⁵⁾

(1) نفسه، ص: 147

(2) نفسه، ص: 316

(3) أبو حيان التوحيدي علي بن محمد بن العباس (ت. 400هـ)، الإمتاع والمؤانسة، ط: 1، بيروت، لبنان، المكتبة العصرية، 1424هـ، ص: 238

(4) في هذه المسألة تسأل أبو حيان عن السبب في تصاغي الهائم والطير إلى اللحن الشجي والجزم الندي؟ ولكنه لم يجد يورد عن هذا

السؤال!

(5) ينظر: أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، ص: 112

إن المعرفة الجمالية عند التوحيدي في كتبه منثورة كحبات اللؤلؤ بين حبات العقد، ويظهر أن الرجل وهو يقدم أراءه الجمالية لم يكن يقصد إلى تسطير نظرية متكاملة في الموضوع، لكن الباحث في مجمل ما سطره في هذا الاتجاه يجده قريبا من نظرية فنية جمالية متكاملة.⁽¹⁾

3- البنية المعرفية الجمالية عند الغزالي (ت.515هـ):

يعرف أبو حامد الغزالي الجمال بقوله: "إن كل شيء فجماله وحسنه في أن يحضر كماله اللائق به، الممكن له، فإذا كانت جميع كمالاته حاضرة فهو في غاية الجمال، وإن كان الحاضر بعضها، فله من الحسن والجمال بقدر ما حضر"⁽²⁾، ومعنى الكمال عند الغزالي ليس واحدا ف"لكل شيء كمال يليق به، وقد يليق بغيره ضده، فحسن كل شيء في كماله الذي يليق به، فلا يحسن الإنسان بما يحسن الفرس، ولا يحسن الخط بما يحسن به الصوت، ولا تحسن الأواني بما تحسن به الثياب وكذلك سائر الأشياء"⁽³⁾.

ويقسم الغزالي الجمال إلى قسمين، ظاهر وباطن، فهناك "جمال الصورة الظاهرة المدركة بعين الرأس، وجمال الصورة الباطنة المدركة بعين القلب ونور البصيرة"⁽⁴⁾، فالجمال الظاهر ملموس ومحسوس يدرك بالبصر، لأنه يتعلق بتناسب الخلقة، وصفاء اللون وغير ذلك، أما جمال الباطن فهو أكثر اتساعا وعمقا ولا يدرك إلا بالبصيرة، لأنه يتعلق بالجلال، والعظمة، وعلو الرتبة، وحسن الصفات والأخلاق، وإرادة الخيرات لكافة الخلق، وإفاضتها عليهم على الدوام، وغير ذلك مما يرتبط بالأخلاق، ولهذا "فمن يختص بإدراكه هم أرباب القلوب، ولا يشاركونهم من لا يعلم إلا ظاهرا من الحياة الدنيا"⁽⁵⁾، ومن يتوقف عند الجمال الأول (الظاهر) دون بلوغ الجمال الثاني (الباطن) فهو في نظر الغزالي "محبوس في مضيق الخيالات والمحسوسات"⁽⁶⁾، ودليله على ذلك أن الجمال غير المدرك بالحواس محبوب أيضا، ومنه جمال يكون خالدا لا يتغير كما يتغير الجمال الظاهر، وقد

(1) عزت السيد أحمد، أسس الفكر الجمالي عند التوحيدي، مجلة التراث العربي، فصلية، تصدر من سوريا، ع. 86-87، 1 أبريل 2002م.

ص: 114

(2) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت.505هـ)، إحياء علوم الدين، بيروت، لبنان، دار المعرفة، د.ت.، 4/ 299.

(3) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، 4/ 299.

(4) نفسه، 4/ 316.

(5) نفسه، 2/ 267، 306 (بتصرف).

(6) نفسه، 4/ 298.

مثل لهذا الجمال الخالد بجمال الشافعي أو أبي بكر الصديق أو علي بن أبي طالب عنه، إذا يحب من يحبه أحد هؤلاء وهو لم يشاهده "ولو شاهده ربما لم يستحسن صورته! فاستحسنه الذي حمله على إفراط الحب هو لصورته الباطنة، لا لصورته الظاهرة"⁽¹⁾، ومرجع الجمال الباطن المدرك بالبصيرة عند الغزالي هو خاصيتين ترتكز عليهما جميع الصفات الجميلة، هما: (العلم) بحق وحقيقة الجميل المستحسن، و (القدرة) على الاتصاف به، أما مرجع الجمال الباطن المدرك بالحواس عنده هو الحواس، ولذلك قسم أنواع الجمال المحسوس إلى خمسة أنواع: جمال يرى، وجمال يسمع، وجمال يشم، وجمال يتذوق باللسان، وجمال يلمس بالجلد⁽²⁾.

يفصل الغزالي بين الجميل والنافع، لكن من دون إلغاء للذة النافع، فهو يقول: "كل جمال محبوب عند مدرك الجمال، وذلك لعين الجمال، لأن إدراك الجمال فيه عين اللذة، واللذة محبوبة لذاتها لا غيرها، ولا تظنّ أن حب الصور الجميلة لا يتصور إلا لأجل قضاء الشهوة، فإنّ قضاء الشهوة لذة أخرى قد تحبّ الصور الجميلة لأجلها، وإدراك نفس الجمال أيضا لذيد، فيجوز أن يكون محبوبا لذاته، وكيف ينكر ذلك والخضرة والماء الجاري محبوب لا ليشرب الماء، وتؤكل الخضرة، أو ينال منها حظ سوى نفس الرؤية؟"⁽³⁾، وهذا التفريق الدقيق بين لذة الجمال ذاته ولذة المنفعة الحاصلة منه يتولد عنه نقاش قضية أخرى أثارها الغزالي وهي المرتبطة بحصول الحال التي تخول الشعور بالجمال، فليس يُشعر بالجمال حسب الغزالي إلا "بعد إشباع الحاجة المادية، فالظمان لا يشعر بجمال خير النهر، كما أن الجائع لا يشعر بجمال الثمار، لأن الجميل يعني إثارة وجدانية"⁽⁴⁾ وهذه التفاتة مهمة تنبئ عن عمق اهتمام الغزالي بجوانب الموضوع الجمالي.

إن ما سبق يبين أن الغزالي قد أرسى قواعد منهج جمالي خاص يوصل به من الجمال المباشر المدرك بالحواس إلى المعنى الأشمل الكلي المدرك بالروح والقلب، وهو منهج يقوم على مراتب أعلاها يصل إلى الجمال الكلي الواحد، وهو جمال الله عز وجل، وهذه الرؤية

(1) نفسه، 4/ 299.

(2) نفسه، 4/ 298.

(3) نفسه.

(4) أحمد ياسوف، جمالية المفردة القرآنية، رسالة قدمت لنيل درجة ماجستير في الآداب (الدراسات الأدبية)، إشراف وتقديم: نورد الدين عتر، ط: 2، دار المكتبي، 1419هـ/1999م، ص: 16-17.

المعرفية الجمالية عند الغزالي عميقة بقدر عمق الموضوعات التي تناولها، والتي حاول من خلالها التوصل إلى حقيقة الجمال وجوهره الذي به يصبغ المحسوسات فتصير جميلة. يتضح مما سلف أن النظر الجمالي الفلسفي والفكري للعلماء المسلمين قديما قد اتسم بالغزارة، وذلك واضح من خلال تناولهم لمفاهيم الجمال ومقوماته ومواضيعه وغيرها، وهو ما يشكل مادة جمالية ثرية تتسم بالوحدة الفكرية التي تجمع التنوع في طياتها، فلا يُشك إذا أن تراثنا الإسلامي يزخر بمعطيات جمالية - تحتاج منا قراءة واعية لتوجيه عناصر القوة فيها بما يخدم الحاضر ويمهد لمستقبل إسلامي مشرق - إلا جاهل به، أو مصاب بعى صليبي كما يقول فريد الأنصاري في قوله: "لقد قاد الجهل بالتراث الإسلامي أو العمى الصليبي بعض فلاسفة الغرب إلى حصر التجربة الجمالية الإسلامية في مجال (الإدراك العقلي)، دون الإدراك الوجداني العاطفي؛ واتهام التجربة الإسلامية بالفقر الفني والجمالي! فأقل ما يقال عن مثل هذا الاتهام أن صاحبه جاهل بحقيقة الإسلام، وقيمه الجمالية من جهة، وبتجربة الأمة الإسلامية جهة أخرى، أعني على المستوى الجمالي، في كل تجلياتها العربية وغير العربية"⁽¹⁾.

وإذا كانت "المعرفة التراثية حلقات متراكبة ومتضايقة، يحكمها التداخل، ويضبطها التكامل، ولا يمكن لأي منهج أن يسعها إلا إذا أخذ بمبدأ التقاطع الموجب لاستكمال شمولية النظر فيها"⁽²⁾ فإن ما عرضنا له من النظر الفكري والفلسفي الجمالي الإسلامي لعلمائنا الأقدمين - بما تميز به من مبدأ التقاطع الموجب لاستكمال شمولية النظر فيه - قادر على الإسهام في تأصيل النظرية الجمالية - على الأقل في مستواها النظري - وإنشاء البنية العامة للمفاهيم المرتبطة بها.

الفرع الثاني: بنية المعرفة الجمالية في الفكر الإسلامي المعاصر والحديث:

سنقتصر كما في المطلب السابق على ثلاث نماذج مختلفة في اهتماماتها العلمية وان كان بينهم جميعا أمور مشتركة، وهذه النماذج هي مالك بن نبي (ت. 1393هـ) باعتباره مفكرا، وعلي عزت بيغوفيتش (ت. 1424هـ) باعتباره فيلسوفا، وفريد الأنصاري (ت. 1430هـ) باعتباره عالما وفقها وأديبا.

⁽¹⁾ فريد الأنصاري، جمالية الدين، معارج القلب إلى حياة الروح، ط: 1، منشورات ألوان مغربية، 2006 م، ص: 16.

⁽²⁾ محمد المعزوز، الجمال.. مدخل إلى الإلهيات والطبيعات، ص: 10.

1- البنية المعرفية الجمالية عند مالك بن نبي (ت.1393هـ):

استطاع مالك بن نبي أن يكشف عبر مجموعة من كتبه - التي من أبرزها "شروط النهضة"، و"مشكلة الثقافة" - أدوارَ الجمال الحضارية، وذلك من خلال بناء معرفي واضح، يكاد يقوم في كثير من أركانه على معادلات رياضية دقيقة، يمتزج فيها اتساعه الفكري مع عمقه العلمي التخصصي ⁽¹⁾.

ونبدأ بمعادلته التي صاغها على الشكل الآتي:

$$\text{مبدأ أخلاقي} + \text{ذوق جمالي} = \text{حضارة}^{(2)}$$

فهي تشكل منطلقاً لدراسة رؤيته الجمالية التي تعتبر أن "تذوق الجمال عامل أساسي في سلامة التوجيه الحضاري من عدمه" ⁽³⁾، لأن الذوق الجمالي بالنسبة لمالك بن نبي هو: "المبدأ الثاني الذي يحدد اتجاه الحضارة، فهو الذي يطبع الصلات الاجتماعية بطابع خاص، من حيث إنه يضفي على الأشياء الصورة التي تتفق مع الحاسة الجمالية والذوق العام، من حيث الألوان والأشكال" ⁽⁴⁾، بمعنى أن دور الجمال في معادلة الحضارة هام بقدر أهمية دور الأخلاق، وقد صنف مالك بن نبي إلى جانب ذلك عنصر الذوق الجمالي -الذي يعتبره أبرز العناصر العضوية الحية التي تتكون منها الثقافة- في المرتبة الثانية في ترتيب عناصر الثقافة بعد العنصر الأول الذي هو الدستور الخلقي ⁽⁵⁾.

ويتحدد المسار الطبيعي لاتجاه الحضارة عند بن نبي عبر التمازج العضوي الحي فيما بين هذين العنصرين الهامين من عناصر الثقافة؛ المبدأ الأخلاقي، والذوق الجمالي، لأن الأول "يضفي على واقع المجتمع نزعة إنسانية بحثة في سلوكياته، بينما الثاني يضفي على واقع المجتمع مسحة جمالية خلاصة تجعله ينشد مواطن الجمال في كل تصوراتهِ لأبعاد عملية

⁽¹⁾ درس مالك بن نبي الهندسة في كبريات المعاهد بفرنسا وتخرج مهندسا كهربائيا سنة: 1936م

⁽²⁾ مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة الدكتور عبد الصبور شاهين، دط، دمشق، سوريا، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1289هـ/1969م، ص: 54 (بتصرف)

⁽³⁾ أسعد السحمراني، مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا، ط: 2، بيروت، لبنان، دار النفائس للنشر والتوزيع، 1406هـ/1986م، ص: 156.

⁽⁴⁾ آمنو تشيكو، مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي وأرنولد تويني، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1410هـ/1989م، ص: 130

⁽⁵⁾ عناصر الثقافة عند مالك بن نبي هي: الدستور الخلقي ويليهِ الذوق الجمالي ويليهِ المنطق العملي ويليهِ الصناعة (بتعبير ابن خلدون)، أنظر: مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة د. عبد الصبور شاهين، دمشق، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع 1289هـ/1969م، ص: 123 (بتصرف)

الإبداع الحضاري الشامل"⁽¹⁾، ولذلك فأى ضعف في التذوق الجمالي يعتبر عاملاً أساساً من عوامل ضعف الأمة الإسلامية، ولذلك دورنا تجاه الجمال يجب أن لا يقتصر على زراعة فسائله في المسرح والموسيقى أو الشعر وفقط، ولكن يتعين أن نجده حاضراً في سائر وجوه النشاط، بل يتعين أن نحرص على الجمال حتى في طريقة زراعة الكرنب والبصل بتربة أحد الحقول⁽²⁾، وضعف الاهتمام بالجمال في نظر مالك بن نبي يشكل خرقاً في الثقافة المجتمعية، ولذلك يتحتم علينا النظر إلى القيمة الجمالية من الزاوية الحضارية، لأنها تسهم في خلق نموذج إنشائي متميز يهب الحياة نسقا معينا، ويمنح الأشياء حركة العمل دفعا وإبداعا، ويحدث التغييرات الإيجابية العديدة في السلوك والحياة⁽³⁾، وهذه الفكرة عبر عنها مالك بن نبي بما يمكن ترجمته إلى معادلة كالآتي:

- الجمال --> الإحسان في العمل --> رقي الحضارة

- ضعف الجمال --> ضعف أو غياب الإحسان في العمل --> تخلف الحضارة⁽⁴⁾

إن المطلوب إذن من أجل رقي حضارتنا أن يتضمن تصميم ثقافتنا المربية عنصر الجمال، الذي يمكننا: "أن نلاحظه في نفوسنا، وأن نتمثله في شوارعنا، وبيوتنا، ومفاهيمنا.. مسحة الجمال نفسها التي يرسمها مخرج رواية في منظر سينمائي أو مسرحي، [ولذلك] يجب أن يثيرنا أقل نشاز في الأصوات والروائح والألوان، كما يثيرنا منظر مسرحي سيء الأداء"⁽⁵⁾، ولا شك أن هذه التربية الجمالية إذا أعطيت للطفل كان ذلك سببا في تنشئته صالحا، ومن ثمة صناعة مجتمع صالح، ولذلك يمكن القول إنه "كما تؤثر ثياب الطفل القدرة على سلوكه، فإنها في الوقت نفسه تخلق شعورا سلبيا في نفسية المجتمع، وبالتالي فالمضمون الجمالي كما يؤثر في بناء وكرامة الفرد، يؤثر في بناء وكرامة المجتمع أيضا، ولهذا ينبغي أن تتجلى قيمة الجمال في كل الظواهر والأنشطة؛ كذوقنا في الموسيقى، وفي الملابس، والعادات، و أساليب الضحك، والعطاس، و طريقة تنظيم بيوتنا، وتمشيط أولادنا، ومسح

(1) علي القريشي، التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي (منظور تربوي لقضايا التغيير في المجتمع المسلم المعاصر)، القاهرة، مصر، الزهراء

للإعلام العربي، 1409هـ/1989م، ص: 197

(2) مالك بن نبي، شروط النهضة، ص: 139

(3) نفسه، ص: 123 (بتصرف)

(4) ينظر: مالك بن نبي، شروط النهضة، ص: 139

(5) علي القريشي، التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي، ص: 199

أحدثنا، وتنظيف أرجلنا، وهذه هي مهمة الثقافة المربية، فبقدر ما تكون الثقافة متطورة، نجد لها مترعة بالبذور الجمالية التي تنمو في وجدان الناس وسلوكياتهم، لتصبح قانونا عاما تخضع له مختلف أوجه النشاط الاجتماعي⁽¹⁾، وهذه النظرة إذا تأملناها وجدناها لا تخرج عن ثنائية جمال الشكل والمضمون، وهي نظرة تناولها الفكر الإسلامي منذ القدم، مما يعني أن مالكاً بن نبي لم يخرج عن هذه الدائرة في طرحه الجمالي، بل أبدع وفقها فأسهل في المعرفة الجمالية الإسلامية من زاوية نظره التي عرضنا لها.

2- البنية المعرفية الجمالية عند علي عزت بيغوفيتش (ت. 1424هـ):

عرض علي عزت بيغوفيتش نظريته للجمال في جانبه المتعلق بالفن من خلال كتبه، وخص كتابه: "الإسلام بين الشرق والغرب" بحديث عن "ظاهرة الفن" تناول فيها رؤيته للفن والجمال، ومما جاء فيها قوله: إن "جوهر الأعمال الفنية غامض غموض المعتقدات القلبية وغموض الحس الداخلي بالحرية، ولقد باءت جميع المحاولات لتعريف جوهر الفن تعريفا عقليا بالفشل، كما فشلت محاولات تعريف الحياة"⁽²⁾، أي إن الفن ما وجد إلا ليصنع الجمال.

يرى بيغوفيتش أنه ثمة ثلاث درجات للحقيقة معروفة وممكنة في هذا الكون، وهي: المادة، والحياة، والشخصية، وهذه الأخيرة هي التي يتناولها الفن، ويمثل لذلك بمثابة يقول فيه: "في القصيدة وفي اللحن واللوح الفنية نواجه سرا، أو كيفا بالمعنى الميتافيزيقي للكلمة، فكيف يمكن تفسير الاختلاف بين اللوحة الأصلية وبين نسخة منها بواسطة الكم؟ اللوحة الأصلية تملك الجمال، و"كل نسخة قبيحة"، فهل نشأ هذا الاختلاف من أن شيئا قد أضيف أو حذف من النسخة بالمعنى الكمي للكلمة؟ لا.. إنما يكمن الاختلاف في "اللمسة" الشخصية بين الفنان وبين عمله الفني، فالكيف يمكن أن يوجد فقط في تلك اللمسة الشخصية"⁽³⁾، أي إن سر الجمال وحقيقته له ارتباط بشخصية الإنسان مبدع الجمال، فبيغوفيتش يرى الفن ثمرة للروح، روح الإنسان المبدع، ولذلك فالفن عنده عمل شخصي وليس جماعي، لأن العمل الجماعي يكون قريبا من "العلم" أما العمل "الفردى" فهو قريب من الفن⁽⁴⁾، ويمثل بيغوفيتش معنى العلم الذي يعتبره دقيقا بصورة فوتوغرافية، أما الفن

(1) نفسه، ص: 197

(2) علي عزت بيغوفيتش، الإسلام بين الشرق والغرب، علي عزت بيغوفيتش، ط: 9، دار الشروق، د ت، فصل: ظاهرة الفن، ص: 144

(3) نفسه، ص: 139

(4) نفسه، ص: 141

فيمثل له بلوحة مرسومة لوجه إنسان أو منظر طبيعي أو غيرهما، فهي لوحة صادقة، والصدق في اللوحة التشكيلية أكثر منه في الصورة الفوتوغرافية، فكأن بيغوفيتش يحاول تفسير العنصر الداخلي الذي هو سر الجمال الفني بهذه المقارنة، ليخلص في النهاية إلى تأكيد وجود صلة بين الفن والدين، وهي التي عبر عنها بقوله: "الشعر ثمرة الصلة بين الروح والحقيقة وبين مصدرهما.. الله"⁽¹⁾، فهكذا يثبت بيغوفيتش علاقة الفن والجمال بالدين وبالله.

ويعتبر بيغوفيتش في نفس سياق حديثه عن علاقة الفن بالدين أن الفن يمارس وظيفته عن طريق التأثير والتأثر؛ ف"إذا كان بيكاسو يذكر أنه عندما ينظر إلى لوحات (سيزان) يعجب من الحماس والوجد الذي كان يغمر (سيزان) وهو يقوم برسم هذه اللوحات.. [فإنه بالتالي] ليس المهم ما عمله الرسام، وإنما الأهم الرسام نفسه من هو"⁽²⁾، أي إن الفن يحدث تأثيره في نفس مبدعه، وهذا التأثير قد يكون كبيراً لدرجة أن يأخذ بمجامع قلب الإنسان ويربطه بالله، و الدين له نفس قوة التأثير أيضاً، ولذلك يقول بيغوفيتش: "إن الفن- في بحثه عما هو إنساني- أصبح باحثاً عن الله"⁽³⁾، بمعنى أن الفن والدين مصدر جمالهما واحد، وهو الله عز وجل.

وحتى يؤكد بيغوفيتش هذه الفكرة بشكل أكثر وضوحاً يضرب المثال بفن المعمار حيث يرى أنه بلغ- في جميع الثقافات- أعظم إلهاماته في بناء المعابد، وينطبق هذا حسب قوله- على حد سواء - على المعابد في الهند القديمة و كامبوديا، و على المساجد في أنحاء العالم الإسلامي، وعلى المعابد التي وجدت في غابات أمريكا قبل وصول كولومبوس، وكذا كنائس القرن العشرين في أنحاء أوروبا وأمريكا، ولا أحد من كبار البنائين والمعماريين اليوم يمكن أن يقاوم هذا التحدي! ويقصد بيغوفيتش بالتحدي: تحدي استجابة الفنانين لدعوة المساجد والكنائس (الدين) لتجميلها بالتصميم والرسم والزخرفة والتزيين وغير ذلك من مظاهر الجمال!⁽⁴⁾

(1) نفسه.

(2) نفسه، ص: 169

(3) نفسه، ص: 174

(4) نفسه، ص: 148

يعتقد بيغوفيتش -تمة لما سبق- أنه ما وجد الجمال في الإسلام إلا ليستتبع التكليف، ويدعو إلى بلوغ حقيقة الله سبحانه، ويستدل على هذا بعرضه آيات قرآنية - منها قول الله عز وجل: ﴿إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوْكَبِ ۖ﴾ (الصافات: 6)، وقوله سبحانه: ﴿نُظَرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعَىٰ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام: 99)، وقوله سبحانه: ﴿أَتَنْسَوْنَ حَاقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أُولَٰئِكَ مَعَ اللَّهِ بِلَ هُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ﴾ (النمل: 60) - وبحديث عن قصة إبراهيم عليه السلام، إذ يتجاوز فتنة الليل بكوكبها الساطع، ونور قمرها البازغ، وفتنة النهار بشمسها الباهرة الكبرى، إلى الله فاطر السماوات والأرض جميعاً⁽¹⁾، وكذلك بتأكيده أن كل ما جعل الله على الأرض من زينة إنما هي لابتلاء الناس أيهم أحسن عملاً!⁽²⁾

إن ما عبر عنه بيغوفيتش في وصفه الفن وعلاقته بالدين يبين أن الفن أو الجمال شيء غامض، يعيدنا إلى الحقيقة التي عبر عنها القرآن الكريم في قول الله عز وجل: ﴿وَحَقَّقَ الْآسَنُ ضَعِيفًا﴾ (النساء: 28)!

ويظهر أن حقيقة الفن والجمال من خلال ما سبق هي ربما نفسها التي طالما تكررت في تصانيف علماء الإسلام، حيث قولهم: "هذا أمر يجده الإنسان في نفسه"، ويتبين الأمر بوضوح أكثر -كما يقول بيغوفيتش- في العجز الحاصل عن الارتفاع إلى مستوى الفن - حتى وإن ساد معتقد مفاده أن "الفن الواقعي" أقرب إلى الإنسان - والأمر راجع لكون "جوهر الأعمال الفنية غامض غموض المعتقدات القلبية، وغموض الحس الداخلي بالحرية"⁽³⁾، وبعبارة أخرى لبيغوفيتش: "الفن إذا استبعدنا منه الغناء، مقدس وفوق - عقلي"⁽⁴⁾، أي إن طبيعته تشترك مع طبيعة الدين في جانبها الغيبي.

واضح إذا أن المعرفة الجمالية عند علي عزة بيغوفيتش غزيرة، خاصة في جانبها الفني، ولعل الرجل ينحث أفكاره الجمالية ويبدها انطلاقاً من رؤية إسلامية تفقه الواقع بشكل جيد، وهذا ما تؤكدته قائمة أسماء الفنانين الذين ذكروا في فصل: "ظاهرة الفن"، والذين تجاوز عددهم المائة.

(1) قول الله عز وجل: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ إلى آخر الآية (الأنعام: 77).

(2) قول الله عز وجل: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (الكهف: 7).

(3) نفسه.

(4) نفسه، ص: 153.

3- البنية المعرفية الجمالية عند فريد الأنصاري (ت.1430هـ):

يمكن للباحث أن يقف على سعة وعمق المعرفة الجمالية عند الأنصاري انطلاقاً مما خطه في كتابه "جمالية الدين"⁽¹⁾، ومما خلفه من تراث، وخاصة الأدبي منه والفني؛ ويعرض الأنصاري لرؤيته الجمالية ابتداء من اختياره لعناوين كتبه، مروراً بإهداءاتها التي يبت فيها جمال كلماته، وانتهاءً بحديثه عن جمال الله عز وجل والدعوة إليه شعراً ورواية وقصة وغير ذلك.

ويبدو أن نشأة الأنصاري منذ طفولته شاعراً قد ساهم في صبغ إنتاجاته بالجمال الذي ترجمته كثير من أفكاره، ويمكن بعد هذا أن نتساءل عن تعريف الأنصاري للجمال، وهو ما نجد جوابه في قوله: " (الجمالية) في الدين، لا تدرك من ألفاظ بعينها في الشرع فحسب، بل هي (مفهوم) مبثوث في أصول الدين وفروعه، إنها تؤخذ من كل معاني الخير، والتخلق، والتجمل، والتزين، والإحسان، ونحو هذا من معاني الجمال، المبثوثة في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، مما من شأنه أن ينتج شعوراً بالجمال عند ممارسة الدين، ولدى الانخراط في الإبداع تحت ظلاله الوارفة!"⁽²⁾، وهذا تعريف للجمال في ارتباطه بالدين، وهو يظهر حجم حضور الجمال فيه، إذ هو مبثوث في فروعه وأصوله، وبين كذلك علاقات الجمال بالخير، والأخلاق وغيرهما مما هو مبثوث في الوحي، ويتناول كذلك إشارة إلى مقاصد الجمال النفسية والعملية.

ولا شك أن هذا التعريف غير كاف لكشف معنى الجمال عند الأنصاري، وهو نفسه في أول سطر من كتابه: "جمالية الدين" يعترف للقارئ - في صيغة تساؤل جميلٍ يحمل معه جواباً أجمل - بأن المعنى الحقيقي للجمال قد غُيِّب في واقعنا اليوم، يقول: "بأي لغة أستطيع تقديم الجمال؟ وما الكلمات كسيرة حسيرة! في زمن تصدرت فيه (جمالية الأشباح) على حساب (جمالية الأرواح)! وغطت الأصباغ الكاذبة جمال الفطرة الصادق! فنصر الناس التمثال على الطبيعة! وضلت الحقيقة في الظلمات"⁽³⁾، وهذا القول للأنصاري يفيد أن الجمال عنده في الروح والفطرة.

(1) فريد الأنصاري، جمالية الدين، (م. سابق).

(2) فريد الأنصاري، جمالية الدين، ص 6.

(3) نفسه، ص: 3.

لقد حاول الأنصاري أن يعرض ملامح رؤيته الجمالية في مجال الفن التشكيلي بمثال يظهر اختياره الواضح للتجريد معيارا لجمال اللوحة الفنية، فقال: "ألا ترى إلى الرسام يرسم اللوحة واضحة كما الصورة الفوتوغرافية، فقد ننهر بروعة المنظر من حيث هو نقل للطبيعة، لكن انهارنا ليس لدقة الإبداع وعظمة التعبير الشعوري، بقدر ما هو انهيار لدقة النقل وعظمة التقليد، ثم إن هذا الانهار يفتر يوما بعد يوم لكثرة النظر إلى اللوحة، واعتياد منظرها ومشهدها، حتى تفقد قيمتها التأثيرية إطلاقا! لأن وضوحها الكاشف على كل أبعادها أفقدها عطاءها المتجدد، أما الرسام يرسم لوحة غامضة غموضا يفقدها القدرة على العطاء والتأثير، بحيث لا يتبين منها المشاهد شيئا؛ كما نرى في كثير من اللوحات اليوم، لأنها لا تقول هي نفسها شيئا؛ فلا مدخل لها في عالم الفن ولا في عالم الجمال! لكن الرسام يرسم اللوحة غامضة لكنها موحية ألوانا وأشكالاً؛ فهذه تبقى لها عوالمها الجميلة مؤثرة دالة دائمة العطاء أبدا، ويمكن أن أمثل لك تمثيلا بسيطا جدا: خذ منظر لوحة تقدم مشهدا من مشاهد البحر في مقطع من الأعماق على سبيل المثال، والزرقاء البحرية تشف جيدا عن المكنون من أسماك وأحجار ومرجان.. إلخ، فإن الناظر سرعان ما يمل ذلك المضمون بعد مشاهدة واحدة أو مشاهدات، ثم لا يلتفت إلى تلك اللوحة إلا عرضا! أما إذا كانت الزرقاء البحرية تضن بمكنونها بحيث لا تبدي، ولكن تبدي من مخايله ملامح وأطياف قد يراها ناظر سمكا، وقد يراها آخر عشبا بحريا، وقد يراها غيره ياقوتا، وقد يراها البعض مجهولا لا يحمل سرا من الأمل، وقد يراها البعض الآخر مجهولا يحمل سرا من الهول والفرع، وهكذا.. إلخ؛ فإن اللوحة تبقى بهائها السرمدى تعطي جماليتها لكل الناظرين والمشاهدين، لا تنضب ذاكرتها أبدا. وذلك هو الفن وذلك هو الجمال"⁽¹⁾.

ويبدو أن الأنصاري من خلال مقارنته أعلاه، التي يبرز فيها جمال لوحة الفنان المسلم مقارنة مع غيره، يشير من طرف خفي إلى أن الرؤية الجمالية الغربية لا يمكنها بحال من الأحوال أن تبلغ رؤية الإسلام للجمال، ويتضح ذلك أكثر بقوله في موضع آخر: "تلك صورهم الحية! فأين منها بسمه (الجوكندا) المصطنعة الشاحبة؟ أو وجوه (بيكاسو) المتداخلة المتنافرة! هذه صور الجمال في الأدبيات الإسلامية، ما تزال تتجدد عبر التاريخ أبدا، ولا يزال القارئ لها في كل مكان يشارك بمخيلته في إبداع الأشكال كما هو يريد! بحرية تتحدى آخر

(1) أحمد رزق، حوار الشعر والرواية مع الدكتور فريد الأنصاري، ط: 1، الرباط، المغرب، طوب برس، 2016م، ص: 92-93.

الصيحات في عالم الرسم والتشكيل! وليس عندهم صور ميتة يفرضها فنان على الناس فتستعبد مخيلة الأجيال وتقتل إبداعهم! و من هنا توجه الفن الإسلامي حضاريا - في الأعم الأغلب - إلى الإبداع ضمن جمالية (التجريد) والتجريد في الحقيقة إنما هو لغة الروح، وريشة الوجدان"⁽¹⁾.

إن الأنصاري وهو يختار التجريد لباسا لجسد الفن يعي تمام الوعي الفرق الحاصل بين التصورين الإسلامي والغربي لمفهوم (الجمال)، فهو عنده بمثابة "الفرق بين الطبيعة والتمثال! أو بين الحقيقة والخيال!"⁽²⁾، والصورة التي يبدعها غير المسلم - في نظره - تبدو "ثابتة قارة يأكلها البلى في متحف (اللوفر)، أو غيره من متاحف العالم"⁽³⁾، بمعنى آخر: هي خالية من الحياة والجمال، وقد تحدث الأنصاري عن سبب غياب الجمال في الأعمال الفنية الغربية، ونتيجة ذلك، فقال: "ما قتل الفن الغربي شيء مثل الولع بسجن الإبداع في الصور الجامدة الثابتة، ولو في حركتها الوهمية الاصطناعية! وعليه، فإن الوضع الفني في أوروبا قد وصل فعلا إلى الباب المسدود!"⁽⁴⁾، وذكر في المقابل أن حضور الجمال في الصور التي ينتجها المسلم والتي يكون "الجمال فيها له روح! [يجعلها] صورا لا تبلى أبد الزمان"⁽⁵⁾ لأن: "جمال الروح هو الأصل في جمال الوجود كله! وكل شيء بعده تبع له!"⁽⁶⁾، فهو هنا إذن يعطي قيمة كبرى للجمال الباطن في مقابل الجمال الظاهر.

من خلال ما سبق يتضح أن الأنصاري يختلف تمام الاختلاف مع نظرة الغرب للجمال (على الأقل في مجال الفنون التشكيلية)، بل وكأنه يحطم قيود تصور الإسلام لهذه الأخيرة على صخرة نظرية مفكره.

إن سعة وعمق المعرفة الجمالية عند الأنصاري لا تقف عند حدود الفنون التشكيلية وحسب، بل تتجاوزها لتتناول مجالات أخرى لها أهميتها في علاقتها بالإنسان،

(1) فريد الأنصاري، جمالية الدين، ص 19.

(2) نفسه.

(3) نفسه.

(4) نفسه، ص: 20.

(5) نفسه، ص: 19 (بتصرف).

(6) صدر لفريد الأنصاري - إلى جانب كتابه الذي عرض فيه جزءا كبيرا من رؤيته الجمالية "جمالية الدين.. معارج القلب إلى حياة الروح" - ثلاث روايات هن: "كشف المحجوب"، "آخر الفرسان"، "عودة الفرسان"، وله رواية (مخطوط) بعنوان "عاصفة الصحراء"، في حين بلغ عدد دواوينه الشعرية تسعة. وهن (دون ترتيب): "جداول الروح"، "أوراس أوراس"، وهما ديوانان مشتركان مع صديقه الشاعر عبد الناصر لقاح، و"مشاهدات بديع الزمان النورسي"، "القصائد"، "الإشارات"، ودواوين أخرى (مخطوطة) هن: "الوعد"، "المواجيد"، "من يحب فرسنا؟" (مشارك مع عبد الناصر لقاح) و"المقامات".

ويمكن للباحث عن هذه المعرفة الجمالية في الإنتاج الأدبي عند الأنصاري أن يتلمس حضورها الكبير والقوي من خلال مستويات عدة، تبرز فيها قدرته على توظيف الكلمة الصادقة الجميلة والمؤثرة لإبداع الإحساس الرقراق المتدفق بعمق الفطرة⁽¹⁾، وذلك من مهمات الأدب الذي يعتبره الأنصاري صناعة فنية جميلة، تتشكل عنده من امتزاج الفطري التلقائي بالمحبوك المسبوك بوعي وإدراك مسبوقين لديه، تبتدئ وتنتهي باللذة التي قصدها مصطفى صادق الرافعي⁽²⁾ حين قال: "واللذة بالأدب (...)" آتية من جمال أسلوبه وبلاغة معانيه وتناوله الكون والحياة بالأساليب الشعرية التي في النفس؛ وهي الأصل في جمال الأسلوب"⁽³⁾، وقد عبر الأنصاري عن ذلك بوضوح حين سئل عما يمثله الشعر عنده فقال: "الشعر عندي صناعة فنية جميلة يمتزج فيها الفطري التلقائي بالمحبوك المسبوك بوعي وإدراك مقصودين، فلا هو متنفس هروبي كالمخدر لدى السكارى والحشاشين، ولا هو عذاب سيزيفي كما هو عند المرضى نفسياً، بل هو رسالة جميلة أمارسها بحس الصانع دقة، وخيال الحالم انطلاقاً"⁽⁴⁾، وهذا يفيد أن جمال الأدب عند الأنصاري مرتبط بجمال شكله ومضمونه.

لقد بث الأنصاري رؤيته الجمالية في كتبه ومحاضراته ودروسه وخطبه وغيرها، ولم يفته في كل فرصة تسنح له أن يثير مسألة الجمال وارتباطاتها، وقد سئل يوماً عن حكم تزيين الحواجب أو ما يسمى بالنمص عند النساء⁽⁵⁾ فكان جوابه بعيداً عن المتوقع، وذلك حين أثار قضية معايير الجمال التي تدفع المرأة إلى هذا الفعل، الذي تحدث عن حكمه غير واحد من الفقهاء، فالمشكلة حسبه ترجع إلى الذوق الجمالي، وغياب المعايير الحقيقية للجمال، فهو إذن لم ينصرف كما حال كثير من المفتين إلى الحكم الشرعي ومناقشته، بقدر ما انصرف ليعالج المشكلة من منظور جمالي يكاد يكون غائباً عند كثير من الفقهاء.

(1) ثمة من النقاد الإسلاميين من يرون ألا معنى لإضافة كلمة إسلامي إلى الأدب إلا من زاوية تمييز الأدب عن غير الأدب، وبعضهم يفضلون شرح معنى أدب إسلامي بكونه "أدب مسؤول" بدل "أدب ملتزم"، لكون كلمة "مسؤولية" ترتبط تاريخياً بالمذهب الوجودي الذي يمثله جون بول سارتر، ومن هؤلاء محمد علي الرباوي، انظر مجلة المنعطف، ع: 2، 1991 م ص: 75.

(2) كان فريد الأنصاري يوصي طلبته أن يحملوا معهم في حقائبهم كتابين هما: المصحف وحي القلم للرافعي.

(3) مصطفى صادق الرافعي، وحي القلم، دار الكتاب العربي، ج: 3، د: 3، ص: 219-218.

(4) أحمد رزيق، حوار الشعر والرواية، ص: 95.

(5) يمكن الرجوع إلى الفتوى عبر قناة يوتيوب (الدقيقة: 0:15) عبر الرابط:

https://www.youtube.com/watch?v=41iWuiGKA_M

ولو تتبعنا أقواله في ما يرتبط بكثير من القضايا الشرعية سواء المتعلقة بالعقائد أو العبادات أو المعاملات أو غيرها، لوجدناه يستحضر الجمال فيها، فهي كلها عنده أعمال تجلي رؤية الإسلام المعرفية للجمال؛ أعمال يتماها في الظاهر بالباطن، والمادي بالمعنوي، وتجلياتها ذات بعد جمالي واضح، في الشكل والمضمون، في المبنى والمعنى، في الرسم والوجدان.

يمكن للباحث الاطلاع على كتابه "قناديل الصلاة"⁽¹⁾ ليرى كيف يؤصل للعبادات من منطلق جمالي قرآني، وكذلك كتابه "جمالية الدين" ليقف على حديثه عن جمالية الغيب، وجمالية العمر، وجمالية العبادات، وجمالية الموت، وجمالية الآخرة، وغيرها مما يرتبط بالدين. ويمكن أن نخلص بشكل عام إلى أن أبرز خصائص الرؤية الجمالية عند الأنصاري - من خلال إنتاجاته - تتمثل في كونها:

- تبرز صورة رسالات القرآن ولا تخفيها، وتجلي الجمال ولا تحجبه.
 - ذات مغزى، وتحمل معنى، وليست أداة تسلية أو بضاعة استهلاكية.
 - تؤدي وظائفها الرسالية الدعوية دون أن تضيع مقصد المتعة والإبداع.
 - تجمع بين سمو الروح وجمال الكلمة، وبين الأصالة والتأصيل و الجمال والتأثير.
 - ليست صناعة لغوية وفنية فقط، بل وسيلة لبناء الإنسان وإقامة العمران.
- وهذه الخصائص الجمالية عند الأنصاري يمكن للدارس أن يتلمس سماتها البارزة التي نعرضها على الشكل الآتي⁽²⁾:
- العالمية والاستيعاب و القصدية: بحيث أن الجمال عند الأنصاري يستطيع ولوج المحافل المختلفة، وخرق الحواجز التي تعترضه ليؤدي وظيفته، أما قصديته ففي رفضه العبثية وإيمانه بوظيفته التي خلقه الله لأجلها..
 - الفاعلية والتأثير والتوازن: وهذه سمة تميز الكلمة القرآنية التي يستمد منها الأنصاري، وهي كذلك شرط في المنتج الجمالي ليكون مبلغا وموصلا للقيم العظمى والمبادئ المثلى، فهو منتج فاعل مؤثر متوازن في المضمون والشكل.

⁽¹⁾ فريد الأنصاري، قناديل الصلاة، مشاهدات في منازل الجمال، ط: 1، البيضاء، المغرب، منشورات التجديد، دار القرويين، 1999م.

⁽²⁾ حاولت جمعها على شكل ثلاثيات، أغلبها متقارب في المعنى، وبعضها ليس كذلك وإنما اقتضته ضرورة التقسيم المنهجي لا غير.

- الوضوح والصدق والجرأة: والوضوح في رؤية الأنصاري الجمالية ومنطلقه المعرفي غير خاف، سواء في الأسلوب الذي يعبر به، أو في صدقه الذي يشهد له به الواقع، أما جرأته ففي تناوله للقضايا التي قد يجد البعض خوفاً أو حرجاً في التعرض لها، كتلك المتعلقة بالسياسة أو غيرها بأسلوب جميل في الشكل والمضمون.

وبشكل عام أستطيع أن أؤكد أن الأنصاري لم يسع لترسيخ أركان الجمالية الإسلامية⁽¹⁾ في الأذهان إلا بعد أن استوعب الفرق الشاسع بين رؤية القرآن للجمال ورؤية غيره له⁽²⁾، ولذلك لا عجب أن جاءت إنتاجاته جميلة بجمال المنطلقات المؤسسة لهذه الرؤية الجمالية القرآنية، و الجمال بهذا الاعتبار القرآني الذي عرض له الأنصاري في تراثه مفهوم ذو امتداد كلي شمولي، يمتد ليشمل علاقة المسلم مع ربه و مع الناس، ثم مع الكون والحياة.

وأعتقد أن ما عرضت له أعلاه يظهر أن الفكر الجمالي الإسلامي حلقة هامة في تاريخ الفكر الجمالي الإنساني، ويبدو أن غناه وتنوعه واتساعه، قد مكّنه من تناول مباحث كثيرة، ومعالجتها بشكل جمالي متميز، وقد كان تناوله ومعالجته لموضوع الذات الإلهية الأبرز والأكثر تميزاً، ومع أننا لم نبحث في جميع القضايا التي تناولها هذا الفكر من جوانبها كافة وذلك أمر يقصر دونه الجهد، إلا أننا حاولنا إبراز ما قدمه فيما يخص المفاهيم الجمالية التي تختزن معرفة هامة تمكن من الاستفادة في علم الجمال المعاصر.

كما يُظهر ما تقدم أن الجمال عند أغلب مفكري وفلاسفة الإسلام قديماً وحديثاً- موجود على مستوى الصور والمعاني، إدراكه نسبي بين الناس من جهة، ومشروط بصحة الحواس، ودقة حكمها، وحسن تمييزها، ودقة الفهم، وعمق الإدراك، من جهة ثانية، ويُظهر كذلك أن مفكري الإسلام وفلاسفته قد عرفوا الجمال، وتناولوا مختلف جوانبه وموضوعاته، ووضعوا له معايير ومقاييس، ظهر بعضها في تعريفات للجمال تكاد تتفق على الكمال والتمام و الاعتدال والتناسب والتوازن وغير ذلك مما يرتبط بجمال الشكل والمضمون.

⁽¹⁾ يقول فريد الأنصاري: "أسس الجمالية في الإسلام تقوم على أركان ثلاثة، هي: المتعة والحكمة والعبادة. باجتماعها جميعاً في وعي الإنسان ووجدانه يتكامل المفهوم الكلي للجمالية في الإسلام" فريد الأنصاري، جمالية الدين، ص 31-32.

⁽²⁾ يمكن الرجوع إلى كتابه "جمالية الدين" حيث خصص تمهيده ل: مفهوم (الجمالية) بين الإسلام والفلسفة الغربية.

ويمكن القول ختاماً لهذا المبحث: إن القرن الكريم و السنة النبوية قد كانا منطلقاً لهؤلاء المفكرين والفلاسفة المسلمين القدماء والمحدثين والمعاصرين في بلورة تصوراتهم الجمالية التي يمكن تسميتها بالإسلامية، ولذلك كانت فلسفتهم للجمال غير منفصلة عن القيم الروحية والمعايير الأخلاقية، وهذا ما لا نجده في فلسفة الجمال في المنظور الغربي، حيث يبدو الانفصال بين الجمال والأخلاق واضحاً.

المبحث الثاني: الدراسات الجمالية في الفكر الإسلامي: تصنيف ودراسة المستويات:

المطلب الأول: تصنيف ونمذجة الدراسات الجمالية الإسلامية:

تزخر المكتبة الإسلامية المعاصرة بالكثير من المؤلفات والدراسات والأبحاث، التي تناولت الجمال في التصور الإسلامي، وهي دراسات تختلف في منطلقاتها ومناهجها وموضوعاتها ونتائجها، ويمكن القول إنها مقسمة على مجالات متنوعة، كالدين والفن والأدب وغيرها، ويمكن عرض أمثلة من هذه المجالات الثلاثة المذكورة على الشكل المبين في الجدول الموجود في آخر البحث:

المطلب الثاني: مستويات الدراسات الجمالية الإسلامية:

إن الناظر إلى مجموع ما ألف من أعمال علمية في الجمال، من قبل الباحثين والدارسين المعاصرين، سواء كانت دراسات أو أبحاث أو مقالات أو غيرها، يلحظ فيها عدم خروجها - رغم تعدد مناحيها ومشاربها - عن تناول الموضوعات وفق مستويات ثلاثة يمكن عرضها كالتالي:

المستوى الأول: أعمال علمية تعالج الموضوعات الجمالية وفق نظر فلسفي علمي يكون أحياناً دقيقاً في التناول والتصوير إلى حد يثير الإعجاب، وينطلق عادة من خلفية فلسفية تبخس الجمال في الفكر الإسلامي حقه، لاعتباره - في ظنها ربما - لم يصل لمستوى ما وصل إليه علم الجمال الغربي، وربما استجلى بعض هذه الدراسات من هذا الأخير ما به يزعم دراسة الجمال الإنساني بشكل عام، لكنها في حقيقتها دراسات لا تتقيد بالمنهج العلمي الذي رسمته لنفسها في الدراسة التي تتناول الجمال في الفكر الإسلامي، وربما يرجع ذلك لاعتقادها أن المعرفة الجمالية الغربية أوسع وأعمق من نظيرتها الإسلامية.

ومن أبرز هذه الأعمال التي نجدها في هذا المستوى الأول أذكر مثلاً:

- بعض مؤلفات شاكر عبد الحميد مثل "التفضيل الجمالي.. دراسة في سيكولوجية التذوق الفني، عالم المعرفة، تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عدد 267، مارس 2001م"، و"دراسات نفسية في التذوق الفني (كتاب يشتمل على ستة أبحاث حول تذوق الأدب وتذوق الفنون التشكيلية، إضافة إلى مقدمة نظرية). القاهرة. مكتبة غريب 1989"، و"الفن وتطور الثقافة الإنسانية، ميريت للنشر والتوزيع، القاهرة، د.ط، 2015م"

- بعض مؤلفات أميرة حلمي مطر مثل: "فلسفة الجمال أعلامها ومذاهبها، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط.1، 1998م"، و"مدخل إلى علم الجمال وفلسفة الفن، دار التنوير للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط: 1، 2013م"، و"مدخل إلى علم الجمال وفلسفة الفن، دار التنوير للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط: 1، 2013م"

- بعض مؤلفات سعيد توفيق مثل: "الخبرة الجمالية: دراسة في فلسفة الجمال الظاهرية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، د.ط، 1992م"، و"تهافت علم الجمال الإسلامي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، د.ط، 2016م"، و"معنى الجميل في الفن مداخل إلى موضوع علم الجمال، الدار المصرية اللبنانية، بيروت، لبنان، د.ط، 2016م"، و"عالمية الفن وعالمه، الدار المصرية اللبنانية، بيروت، لبنان، د.ط، 2017م".

المستوى الثاني: أعمال علمية تعالج الموضوعات الجمالية وفق نظر علمي ينطلق من القرآن والسنة والتراث الإسلامي، وبعضها يقف عند القرآن فقط أو السنة فقط لدراسة ما يزخران به من جماليات، سواء في اللغة أو الأسلوب، أو المضمون، أو غير ذلك، وقد تركز بعض هذه الدراسات على جانب جمالي واحد تتناوله وفق هذه الرؤية "الإسلامية" التي يكاد يكون غائبا في بعضها الاستفادة مما وصل إليه علم الجمال الغربي، وربما كان غرض بعض أو أغلب هذه الدراسات بناء نظر معرفي جمالي إسلامي يتخطى ما وصل إلى النظر المعرفي الجمالي الغربي، ولذلك نجد في بعضها عقد مقارنات بين التصور الإسلامي للجمال والتصور الغربي له، وهي مقارنات تنتهي في غالبيتها الأعم إلى القول بتفضيل الجمال الإسلامي على الغربي.

لقد استطاعت بعض هذه الدراسات - بمستويات مختلفة من حيث شمولها وعمقها- أن تشكل تصورا واضحا لبعض قضايا الجمال، وإن كان الغالب عليها أنها قليلة جدا، مما يظهر الحاجة إلى مزيد من الأعمال العلمية من هذا الصنف.

ومن أبرز هذه الأعمال التي نجدها في هذا المستوى الثاني أذكر مثالا:

- "جمالية الدين.. معارج القلب إلى حياة الروح فريد الأنصاري، سلسلة اخترت لكم 23، منشورات ألوان مغربية، ط: 1، 1427هـ/2006م"

- "الجمال.. مدخل إلى الإلهيات والطبيعات، محمد المعزوز، المركز الثقافي للكتاب للنشر والتوزيع، البيضاء المغرب، بيروت، لبنان، ط: 1، 2020م"

- "الاسلام والفن، يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، ط: 1، د.ت"

المستوى الثالث: أعمال علمية تتناول الجمال في علاقاته بمجالات مختلفة، مثل الفن أو الفلسفة أو الأدب أو غير ذلك، ومنها ما خصص لدراسة جمال موضوع محدد في فترة تاريخية ما، أو في رقعة جغرافية ما، أو في مجال علمي ما، كارتباطه بالعمارة مثلا، أو بالتصوير، أو بالموسيقى، أو بالخط، أو بالمرح، أو بالأدب، أو بالفلسفة، أو بالنقد، أو بغير ذلك، وهي أعمال تختلف في مناهج تناولها للموضوع الذي تدرسه، وبعضها ينطلق من خلفيات تدعي التحرر من التبعية لأي جهة، لكن في ثنانيا تناولها للمواضيع تكشف عن تأثيرها بتصورات غربية أو غيرها، وهناك دراسات أخرى في هذا المستوى الثالث تفصح عن كونها أعمالا جادة ومتخصصة ومتحررة بالفعل، وقد استطاعت أن تثمر نتائج هامة، يمكن الاستفادة منها مستقبلا في بلورة تصور عام للجمال في ارتباطه بالفن.

ومن أبرز هذه الأعمال التي نجدها في هذا المستوى الثالث أذكر مثالا:

- دراسة "الموسيقى والموسيقيون في ميزان الشريعة، لويز لمياء الفاروقي، مجلة المسلم المعاصر، العدد: 43، يونيو 1985م"

- دراسة "الاسلام وفن العمارة، إسماعيل راجي الفاروقي، مجلة المسلم المعاصر، العدد: 34، شباط نيسان 1981م"

- "فلسفة الجمال ونشأة الفنون الجميلة، محمد علي أبو ريان، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، د.ط، د.ت"

ختاماً لهذا المبحث أقول: إن مجموع ما أنتج من معرفة جمالية إسلامية من قبل الفلاسفة والمفكرين المسلمين قديماً، كان له الفضل في التأسيس لبنية المعرفة الجمالية الإسلامية، ومع أن الموضوع الجمالي الإسلامي عموماً لم يتبلور في الغالب كموضوع مستقل عند هؤلاء الفلاسفة والمفكرين المسلمين الأقدمين، بل جاء وجوده نتاجاً عرضياً، وضمن مواضيع معرفية قد تقترب من موضوع الجمال دون أن تختص به كبحث مستقل وفق قصدية واضحة، إلا أن تناولهم الضمني له قد كان مهماً وأساساً لفهم تصوراتهم الجمالية، وما تفرع عنها من تنظيرات تأصيلية، شكلت القاعدة والإطار المعرفي الذي سارت عليه الجماليات الإسلامية اليوم، والتي استفادت منها الدراسات المعاصرة والحديثة بشكل عام، وبفضل هذا استفاد الجمال في الفكر الإسلامي من مكانة عالية لا ترقى به من حيث هو مفهوم، وكذا من حيث هو تجربة وجدانية إنسانية، وذلك لارتباطه بسائر مناحي الحياة، ولتعلقه بالعقيدة والعبادات والمعاملات والقيم وغيرها، ومن هنا اتضح أن تناول المسلمين له نظري وتطبيقي، مما يعني أن مفهومه قد اتسع ليشمل كل الجوانب؛ مادية، وروحية، وحسية، ومعنوية، وغيرها، وبذلك استطاع أن يسهم في المنجز الجمالي الحضاري الإسلامي.

خاتمة:

يتبين من خلال هذا البحث مدى أثر إسهام العلوم الإسلامية في بناء المعرفة الجمالية ومدى سعتها وعمقها ودورها في بناء الحضارة الإنسانية، في جميع جوانبها ومستوياتها سواء من خلال قضايا الدين أو اللغة أو الفلسفة أو غير ذلك، وهو ما تبين من خلال جرد ما تزخر به المكتبة الإسلامية المعاصرة من المؤلفات والدراسات والأبحاث التي تناولت الجمال في التصور الإسلامي، وتقسيمها إلى مجالات، وإبراز المستويات التي تناولت بها الموضوع الجمالي.

يوصي البحث ب:

- إيلاء العلوم الإسلامية مزيد اهتمام، خاصة تلك التي تناولت الجمال وقضاياها والتي استكشفت وكشفت وفسرت وقربت معاني الإسلام ومقاصده، فهي كما يظهر من خلال البحث تشكل منظومةً فريدةً متميزةً عن غيرها مما يجعلها مؤهلة لنفع البشرية جمعاء.
- تمكين علوم الجمال بمفهومها الإسلامي الأكاديمي التخصصي، من مواجهة التحديات المعاصرة، وذلك بحسن فهمها وبيانها وتنزيلها لتسهم في تحقيق الفعالية الحضارية ولتكون لها أدوار إنتاجية رائدة كما كانت لها من قبل.

قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم (برواية ورش عن نافع).

كتب عامة:

- 1- أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت. 505هـ)، إحياء علوم الدين، بيروت-لبنان، دار المعرفة، د.ت.
- 2- أبو حيان التوحيد علي بن محمد بن العباس (ت. 400هـ)، الإمتاع والمؤانسة، ط: 1، بيروت-لبنان، المكتبة العصرية، 1424هـ.
- 3- أبو عثمان، الشهير بـ"الجاحظ" (ت. 255هـ) رسائل الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، د.ط، القاهرة- مصر، مكتبة الخانجي، ج: 2، 1384هـ/1964م
- 4- أحمد رزقي، حوار الشعر والرواية مع الدكتور فريد الأنصاري، ط: 1، الرباط-المغرب، طوب بريس، 2016م.
- 5- أسعد السحمراني، مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا، ط: 2، بيروت-لبنان، دار النفائس للنشر والتوزيع، 1406هـ/1986م.
- 6- آمنو تشيكو، مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي وأرنولد تويني، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1410هـ/1989م.
- 7- الجاحظ (ت. 255هـ)، الحيوان، ط: 2، بيروت-لبنان، دار الكتب العلمية، ج: 4، 1424 هـ
- 8- سعد الدين كليب، البنية الجمالية في الفكر العربي الإسلامي، دراسات فكرية 35، منشورات وزارة الثقافة، دمشق- سوريا، 1997م.
- 9- علي القريشي، التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي (منظور تربوي لقضايا التغيير في المجتمع المسلم المعاصر)، القاهرة-مصر، الزهراء للإعلام العربي، 1409هـ/1989م.
- 10- علي اللواتي، نحو نظرية للجمالية الإسلامية، ضمن: الفن العربي الإسلامي، ط: 1، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1982م.
- 11- علي عزت بيغوفيتش، الإسلام بين الشرق والغرب، علي عزت بيغوفيتش، ط: 9، دار الشروق، د ت
- 12- عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (ت. 255هـ)، البيان والتبيين، دار ومكتبة الهلال، بيروت-لبنان، ج: 1، 1423هـ
- 13- الفرابي، كتاب التنبيه على السعادة، تحقيق: جعفر آل ياسين، ط: 2، القاهرة- مصر، دار المناهل للنشر والتوزيع، 1987م.
- 14- فريد الأنصاري، جمالية الدين، معارج القلب إلى حياة الروح، ط: 1، منشورات ألوان مغربية، 2006م.
- 15- فريد الأنصاري، قناديل الصلاة، مشاهدات في منازل الجمال، ط: 1، البيضاء، المغرب، منشورات التجديد، دار القرويين، 1999م.
- 16- مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة الدكتور عبد الصبور شاهين، د.ط، دمشق- سوريا، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1289هـ/1969م.
- 17- محمد المعزوز، الجمال.. مدخل إلى الإلهيات والطبيعيات، ط: 1، البيضاء- المغرب، المركز الثقافي للكتاب للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2020م.
- 18- مسكويه، الهوامل والشوامل، تحقيق سيد كسوري، ط: 2، بيروت-لبنان، دار الكتب العلمية، 2012م.
- 19- مصطفى صادق الرافعي، وحي القلم، دار الكتاب العربي، ج: 3، د ت.

رسائل جامعية:

- أحمد ياسوف، جمالية المفردة القرآنية، رسالة قدمت لنيل درجة ماجستير في الآداب (الدراسات الأدبية)، إشراف وتقديم: نورد الدين عتر، ط: 2، دار المكتبي، 1419هـ/1999م

مجلات:

- 1- أحمد أنيس الحسون، في تاريخ الفكر الجمالي، مجلة المعرفة، العدد: 556، يناير 2010م.
- 2- عبد الباسط بدر، نحو نظرية جمالية إسلامية، مجلة الأدب الإسلامي، تصدر عن رابطة الأدب الإسلامي العالمية، العدد: 58، 1429هـ/2008م.
- 3- عزت السيد أحمد، أسس الفكر الجمالي عند التوحيدي، مجلة التراث العربي، فصلية، تصدر من سوريا، العدد: 86-87، 1 أبريل 2002م.
- 4- مختار قطش، مفهوم الجمال عند الجاحظ، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، عدد: 18، ديسمبر 2002م.

من الشبكة:

- فتوى لفريد الأنصاري عبر قناة يوتيوب (الدقيقة: 0:15) عبر الرابط:
https://www.youtube.com/watch?v=41iWuiGKA_M